في عالم الفكر :

الوجـــودية

« ٢ »

« مهداة إلى الدكتور محمد القصاص »

للأستاذ على متولى صلاح

في الكلمة الموجزة التي قدمت عن « الوجودية » ما يكشف عن الخطوط الرئيسية لهذا المذهب ، ويوضح معالمه الكبرى ، وإن يكن الحديث عن « الوجودية » يتطلب كلمات وكلمات ، حتى يمكن أن تستقر في أذهان الناس مبادئ هذا المذهب الذي أعتقد أننا — نحن الشرقيين على وجه العموم — أشد ما نكون حاجة إلى إقراره في نفوسنا ، لتتحلل من الميوعة والوغادة والانحلال السارى بها

وقد أوضحت في كلمتي السابقة أن « الوجودية » تطلب إلى الناس أن يكونوا شجعانا في حمل المسئوليات التي تلقيها الحياة عليهم ، أشداء أقوياء فيما يأتون من أعمال ، وأن يهدفوا بأفعالهم وأقوالهم — فإن القول عند المذهب الوجودى إنما هو عمل إيجابي بل الصمت ذاته نوع من العمل وإن يكن سلبيا — أن يهدفوا إلى تغيير أو تعديل أو هدم لوضعية من وضعيات الحياة ، لا أن يهرفوا في الهواء بكلام مثالي ولكن لا غناء فيه ولا أثر له !

ولكي أقرب إلى أذهان القراء المذهب أريد أن أعقد في كلمتي هذه مقارنة بين أسطورة تناولها اليونان الأقدمون على طريقتهم التقليدية الكلاسيكية المعروفة ، وتناولها « جان بول سارتر » على طريقته الوجودية المستحدثة ، توضح فرق ما بين خصائص المذهب الوجودى وما عداه من المذاهب ، وتكشف في جلاء عن القواعد الصحيحة التي يقوم عليها هذا المذهب الذي ينعاله الجاهلون بالذم والإساءة ، ويقصدونه بالتشهير والتعيير ، ليزجوا النكتة إلى القارئ ، ويقدموا إليه التسلية والتلهية ، ويكونوا عنده من الظرفاء المحببين ! !

فنحن نعرف الأسطورة اليونانية الشهيرة التي نظمها أول الشعراء الممثلين النابهين من اليونان إسكيلوس في القرن الخامس قبل الميلاد ، ونظمها من بعده الشاعر اليوناني الخطير سوفوكليس في مسرحيتين ما زالتا تنبضان بالحرارة والحياة ، وما زالتا معينا خصبا للشعراء والكتاب على مختلف العصور ، وأعني بها أسطورة « أجاممنون » ، التي نلخصها في إيجاز شديد وفي اقتضاب لا يمكن أن يجزئ عن قراءتها كاملة — بما يأتي :

هب « أجاممنون » مع الذاهبين إلى حرب « طروادة » تلك الحرب الضروس التي عقد عليها « هوميروس » الإلياذة وعلى العودة منها « الأوديسة » ، وغاب « أجاممنون » عشر سنوات عن زوجه التي لم تكن تعلم عنه خلال هذه السنين شيئا ، ولا تدرى من أنبائه قليلا أو كثيرا ، فاتخذت لها من دونه عشيقا « إيجست » أخاه ، وظلت تقاسمه الفراش طوال هذا الزمن ، وبيتت معه أمرا إن آذنت الأقدار بعودة « أجاممنون » !

وكتب الله النصر لليونانيين على الطرواديين ، وعاد « أجاممنون » فيمن عاد من الظافرين المنتصرين ، فاستقبلته زوجه استقبالا رائعا وأبت أن تمس قدماه الأرض قدت له البسط الأرجوانية وأقامت له معالم الفرح والسرور . وما هو إلا أن يدخل إلى الحمام حتى تشده في لباس يحتويه كالشبكة إذ تحتوى السمكة ، ثم تهوى على عنقه فتصميه !

وكان له منها ابنة اسمها « ألكترا » وابن اسمه « أورست » ، أما الابن فقد استطاعت أخته إخفاءه وتهريبه مع مربيه الذي لازمه وما فتئ يلقنه كيف يأخذ بثأر أبيه ، وأما الابنة فقد ظلت في قصر أبيها القتيل أشبه ما تكون بالخادم أو الأمة تشهد عشيق أمها يقاسمها فراش أبيها البطل « أجاممنون » وتنتظر أخاها الغائب — وقد شب عن الطوق وصار رجلا يستطيع أن ينهض

بما ينهض به الرجال — تنتظره ليأخذ بثأر أبيه ويخلصها مما تعانى ، وقد أوحى إليها أنه لا محالة عائد فعاشت على هذا الأمل الرجو

ثم يجىء « أورست » بوحى من الإله « أبولون » فيقتل أمه ويقتل عشيقها « إيجست » تنفيذاً للوحى ، ثم يهرب إلى معبد هذا الإله محتميا به طالبا إليه ألا يتركه وألا يتخلى عنه ، ثم يحاكم « أورست » أمام مجلس من أهل أثينا ترأسه الإلهة « أثينا » نفسها فيدفع « أورست » عن نفسه بأنه لم يقترف جريمة القتل إلا استجابة لما أوحى إليه به الإله « أبولون » ، ويعترف الإله « أبولون » بذلك وبأنه هو الآخر قد أوحى إلى « أورست » بما أوحى استجابة لما أمره به كبير الآلهة « ذوس » ! ويدافع عنه دفاعا مجيدا حتى تنتهى المحاكمة ببرئته ! .

هذا هو ملخص مضغوط جدا لأسطورة « أجاممنون » كما ذكرتها الأساطير اليونانية . والذى يهمنا من هذه الأسطورة جميعها إنما هى شخصية « أورست » وعليه سنعقد المقارنة ، فماذا كان « أورست » هذا فى الأسطورة اليونانية ؟ ثم كيف صار عند زعيم المذهب الوجودى ؟

لم يكن « أورست » فى الأسطورة اليونانية غير آلة فى يد الأقدار اتخذته لتنفيذ إرادتها ، فلم يكن له هدف خاص فى جريمته ولم تكن لديه « فكرة » عنها ، ولم تكن لجريمته هذه علاقة بالحياة ... بحياته هو أو بحياة الناس الذين يعايشهم ، ولم يكن يبغى بها تغييرا أو تبديلا لشىء فى الحياة ، وهو قد تنصل منها بعد أن أتاها وضعف واستخذى وخارت قواه ، وفر إلى الإله « أبولون » ثم إلى الإلهة « أثينا » يستجير بهما من ربات الانتقام اللائى يلاحقنه يبغين قتله جزاء على فعلته ، فكانت جريمته جريمة بلهاء صماء لا معنى لها ولا أثر وراءها ولا هدف تهدف إليه

وكيف كان « أورست » هـــذا عند زعيم الوجودية « جان بول سارتر » ؟

إنه أخرج هذه الأسطورة على طريقته فى روايته الشهيرة المسماة « الذباب أو الندم » التى قام بترجمتها الكاتب الكبير المتأثر بالوجودية فى مصر « الدكتور محمد القصاص » والتى أدعو القراء وبخاصة هؤلاء الذين يتهكمون على الوجودية أن يقرءوها فى إخلاص وتجرد من الهوى .. وأنا زعيم لهم بأن ينقلبوا لهذا المذهب أنصارا ومحبين

جعل سارتر من « أورست » رجلا آخر يغاير تمام المغايرة ما كان عليه عند اليونان ، جعله الرجل « الوجودى » المنشود !

يقترف الجريمة وهو بعنى ما يفعل ، ويقترفها حرا كريما مسئولا عنها وحده دون وحى سابق أو معونة خارجية ، ويقترفها وهو يهدف باقترافها إلى احتمال آثام الناس التى يتردون فيها ، والانفراد بالندم الذى يلاحقهم ويملأ عليهم حياتهم ، وتلاحقه ربات الانتقام وتلازمه ليضعف أو يندم أو يهن فلا يكون ذلك منه أبدا .. ويقول فى قوة وعنف « لقد فعلت ما فعلت ولن أندم عليه . » ويخاطب أخته « ألكترا » فى أمر شعبه البائس النادم الغارق فى الإثم فيقول لها : — « أصغى إلى : هؤلاء الناس الذين يرتعدون فرقا فى غرقاتهم المظلمة تحيط بهم فقداؤهم الأعزاء . ماترين لو أخذت على كاهلى جميع خطاياهم ؟ لو أردت أن ألقب عن جدارة « بصارق الندم » ! وأن أفسح فى نفسى مكانا لجميع توباتهم »

ثم يخاطب شعبه المجتمع بين يديه فيقول لهم « ... إن جريمة لا يقوى صاحبها على الاضطلاع بحملها ليست جريمة إنسان بل هى أقرب إلى الحادث العارض ... وأنا أصر أمام وجه الشمس على نسبتها إلى وهى كنه حياتى ومعدن كبريائى ، ولم أرتكب جريمة القتل إلا من أجلكم . . من أجلكم أنتم ... ألقوا على بخطاياكم وبندمكم وبالضيق الذى يقبض ليساليكم وبجريمة « إيجست » وليضطلع بجميعها كاهلى »

هذا هو « أورست » الوجودى ، أو على الأصح هذه هى « الوجودية » ممثلة فى أورست ، فماذا تكون الوجودية إذن ؟

إنها الرجولة والحرية والشجاعة واحتمال المسئولية والصراحة والجرأة ، والاتفاق مع النفس فى السر والعلن ، وبذل الجهد لإصلاح الحياة الراهنة وتطويرها ...

فقل للذين يسيبونها دون فهم ، ويزدرونها دون علم ، ماضر لو صبرتم حتى تدركوا ما تكتبون ، وتفهموا ما تقولون ؟

أنس

على مسئولى صدوح